بشكل خارجي ، دون الدخول الى عملية اعادة تقييم لشعر درويش والنظر اليه من خلال التطور نحو القصيدة — الرؤيا ، التي هي نسيج واقعي يعيد تركيب الواقع بجزئياته عبر طموح الشاعر العربي المعاصر الى تحويل الشعر من مجرد صوت يصف الحدث ، الى صوت فاعل داخل حركة المسار التاريخي للحركة الثورية العربية .

د — اين يقع الشعر الفلسطيني ضمن الحركة الشعرية العربية المعاصرة ؟ واذا كان محمود درويش هو احد ابرز ممثلي هذا الشعر فاين موقعه الفني ؟ على هذا السؤال لا يجيب الناقد الا في الفصل الاخير من كتابه — ماذا نتعلم منه ومن رفاقه — فاذا به يكتشف ضرورة تعلم الصمود وروح التفاؤل . وليدلل على قوله وعلى الاثر الذي احدثه شعراء الارض المحتلة فانه يستشهد بالتطور الذي حصل في شعر فدوى طوقان وابو سلمى ونزار قباني . فطوقان تتخلى عن رومانسيتها وابو سلمى يتخلى عن حزنه وقباني يوقظه صوت الهزيمة من احلامه الناعمةوالهادئة. واذا بشعر الارض المحتلة يعيد «الامل الى النفس العربية ... وانتقل بالشعر والشعراء الى عالم جديد وموقف جديد من الحياة ، ليس فيه يأس ولا بكاء بل فيه امل وتفاؤل ونظرة الى الامام » . بهذا يعطي رجاء النقاش بديلا عن الحب القاسي حبا اقسى واشد مرارة . فالشعر الفلسطيني في الارض المحتلة لعب دورا كبيرا في حياتنا الثقافية والنضالية ، لا سيما في فترة صعود المقاومة ، فكان ان واكبها وغنى جراحاتها انطلاقا من مواقعه النضالية الخاصة . لكن هذا الشعر لم يستطع ان يتطور كي يصل الى مستوى القدرة على الرؤية التاريخية حتى الان . اي انه في مستوى رد الفعل على القمع والسحق وليس في مستوى الفعل التاريخي الثوري . اما الاثر الايجابي على فدوى طوقان او نزار قباني فانه ليس بالمستوى الذي يكلمنا الناقد عنه . ففدوى طوقان لا تزال اسيرة لرومانسيتها وان جرت الكثير من التطورات في شعرها ونزار قباني عاد الى سيرته القديمة شاعرا للبرجوازية المرفهة .

ان شعر الارض المحتلة شكل رديفا للحركة الشعرية العربية المعاصرة ، بأن استطاع ان يضيف اليها بعد التعلق الشديد بالارض والنسج حولها نسجا رومانسيا ومن ثم واقعيا حاد النبرات عميق القسمات . لكن الشعر العربي بأسره وشعر درويش من ضمنه لا يزال ضمن عملية البحث عن القدرة على التعبير الفني عن جراحات الانسان العربي . هذا البحث وان كان خافتا في الارض المحتلة ، فانه خارجها يأخذ كل زخمه حيث يجد الادب نفسه مواجها بالهزيمة ومواجها بالبحث عن رده عليها ضمن حركة البحث الشاملة والنضالات التي تجري على الارض العربية .

هـ — ان هذا البحث الذي يجري على المستوى الشعري يطرح قضية علاقة الشعر بالمعركة . ما هو الشعر الثوري وما هو الشعر المقاوم ؟ الكتاب لا يجيب على هذا السؤال بل يأخذ ظاهر شعر محمود درويش الذي يدعو الى المقاومة والى التمسك بالارض ، دون ان يربطه بالثورة على مستوى الشكل الشعري والايقاع الموسيقي في القصيدة . من هنا يبدو ان السؤال حول ثورية شعر محمود درويش يبقى معلقا دون الاجابة . والواقع ان هذه القضية النظرية هي القضية المركزية لاي بحث في الشعر الفلسطيني المعاصر. فهذا الشعر هو وليد بيئة تتفجر بالانتفاضات الثورية . من هنا فمعالجة قدرة هذا الادب على الوصول الى افق الادب الثوري — بمعنى قدرته على ان يجمع في ذاته الافق الثوري وقضايا الطبقات الثورية مبلورا اياهما في نسيج فني جديد يتصدى للذوق السائد الذي يشرطه فكر الطبقات السائدة . فهو يتعامل مع التراث بشكل جديد . استيعاب وتجاوز — ثم يخط لنفسه طريقا جديدا في المخاطبة والحرية .

لكن كتاب رجاء النقاش يقف عند حدود مرسومة سلفا . هذه الحدود هي حدود النشوة التي تحدثها غينا قصائد درويش وقدرتها على تعبئتنا في سبيل المعركة . هذه النشوة بدأنا نفتقدها مع المحاولات الشعرية الجديدة للشاعر التي يريد بها القدرة على التعبير عن موقف شامل . القدرة على الصياغة الواقعية التي تجاور الحلم . حيث يصبح للاشياء منطقها الجديد . المنطق الثوري الخاص بها ، حيث التداعي يأخذ مداه والحلم يصير لباس الشاعر والموسقة تتخذ لها طريقا جديدا . فمرة يموسق النثر ومرة يجعل الموسيقى الداخلية التي تنفجر من العلاقة النغمية التي للحروف بعضها بالبعض الاخر مادة لموسيقاه . هكذا يكون الاطار الذي رسمه الناقد ليس هو اطار الشاعر وهنا تحدث اهم مفارقات الكتاب . انه كتاب مرحلة تنتهي . فالمرحلة الجديدة لا يصفها